ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 09 مارس 2021

الفيلسوف ورجل الدين

ريجيس دوبريه
ترجمة: عبد القادر ملوك

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

All rights reserved © 2021
جميع الحقوق محفوظة © 2021

الفيلسوف ورجل الدين[1]

ريجيس دوبريه

ترجمة وتقديم: **عبد القادر ملوك**[2]

1 Régis Debray, «*le philosophe et le religieux*», dans: Le feu sacré, fonctions du religieux, Librairie Arthème Fayard, 2003

2- أستاذ التعليم العالي مساعد، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

تقديم:

انهجس الفيلسوف الفرنسي ريجيس دوبريه منذ بداياته الأولى في التأليف، بالتنظير والتقعيد للوسائطيات، باعتبارها دراسة لمختلف أشكال الوسائط التي يعتمدها البشر في تعاملاتهم واتصالاتهم الحياتية، وقد بذل في ذلك جهدا جهيدا، نصَّبه رائدَ هذا المبحث ومؤسسه الرئيس بإجماع الباحثين. واللافت في الأمر أن دوبريه لم يكتفِ بالتصدي للوسائطية في العالم المنظور وحده، بل جعلها تمتد لتشمل العالم غير المنظور، العالم الآخر بكل عناصره ومقوماته، كاشفا النقاب عن صلة الإنسان بالإلهي، وتجلياتها في الديانات التوحيدية كما في غيرها من أشكال التدين والتعبد الأخرى، معتبرا إياها جميعا ظواهر في حاجة ماسة إلى تحليل «ميديولوجي»، يفحص الأفكار الدينية، والأسناد التقنية التي توظفها لبث رسائلها، فضلا عن المؤسسات التي تُنَصِّب نفسها قَيِّمَة على الشأن الديني.

هكذا وبعد كتابه «**الإله. خط سير**»، وسّع دوبريه مجال بحثه دافعا بمنهجه إلى أقصى مداه، ليتأتى له الكشف عن أساسيات الإنسان المتدين في الغرب كما في مناطق أخرى، بصرف النظر عما إذا كان هذا الإنسان يعبد إلها واحدا، أو ألْفًا، أو لا أحد.

وهو في هذا السِّفر، الذي اقتطفنا منه هذه الترجمة المقتضبة، أقصد «**النار المقدسة، وظائف الديني**»، يرصد تجليات وتبعات «**النار المقدسة**» التي كانت ولا تزال وستظل باقية، بتقلباتها وتناقضاتها، في قلب المدينة ما بقي الإنسان في الوجود، كما يقف بدقة على مجمل الاختلافات القائمة بين الجانب الديني ووظائفه والجانب الروحي وتجسداته.

فما الجدوى من الأديان؟ وما عسانا نفعل بها؟ وكيف نفكر فيها؟

أول ما يستوقفنا في هذه الأسئلة أنها لا تسائل الدين بل الأديان، وهي مسألة يقصدها دوبريه وينافح عنها لاقتناعه بأن الدين على وجه الإجمال لا وجود له؛ ويجب ألا نستخدم اللفظ الدال عليه إلا بصيغة الجمع. وليس مردّ ذلك في اعتقاده إلى تشتت الظاهرة الدينية، ولا تجانس مكوناتها، وصعوبة التعامل بنفس الكيفية مع ديانة سماوية وديانة ملحدة وغيرهما من ضروب التدين الأخرى، فحسب، ولكن لأن مبرر وجود الأديان جميعا، هو أن تتميز بعضها عن بعض؛ لأن حياتها في تميزها واختلافها لا في توحدها كما يعتقد الحالمون.

ومع ذلك، يحذرنا دوبريه من مغبة تقديم أجوبة عجلى على أسئلة من هذا القبيل؛ لأنها ببساطة من نوع الأسئلة الملغومة التي تحمل معها إرثا تاريخيا مديدا يستوجب أخذ الوقت الكافي والتزام الهدوء والتريث في

التعامل معه. كما يقتضي أن نفحص، دونما غشاوة ودون أحكام مسبقة جاهزة، الوظائف الحيوية والاجتماعية والنفسية التي نهضت بها، وما زالت، قلوبنا وأرواحنا عبر التاريخ. وهذا بالفعل، ما يقوم به دوبريه هنا، دون تعصب ولا تبشير، مستندا في ذلك إلى مستندات ووثائق وبنية حجاجية قوية، أراد من خلالها أن يُلفت انتباه المؤمنين كما «غير المؤمنين» إلى أمر غريب، أو غير مألوف لديهم، بتعبير أخف، يتمثل في جعلهم يرون المقدسَ كطريق للوصول إلى الدنيوي (المدنَّس)، والمتخيَّل كبوابة للولوج إلى الواقعي، وتمكينهم بالتالي من أن يفهموا دون غموض أو تفخيم في الكلام ما الذي تعنيه بالتدقيق الأُخوة، والكراهية، والحرب، والهوية، والوحدة والسلام، وأن يدركوا كذلك أن الإنسان مجبول على الإيمان؛ لأنه يضمن له توازنا يُمَكِّنه من عبور الحياة بشقاء أقل، وأن هشاشته النفسية لا تخوله العيش دون قناعات أو معتقدات يُسند إليها رأسه، ويشد بها عضده حتى لا ينهار في نقطة ما من رحلة العبور؛ فهو إذا «لم يؤمن بالله منذ حداثة سنه، فإنه سيؤمن لا محالة بلينين، أو بهتلر، أو بالدلاي لاما، أو بلاكان، أو بالبروليتاريا، أو ببُرْجه، أو بالجمهورية، أو بصهيون، أو بماو تسي تونغ، أو بالأمة، أو بزيدان، أو بنايكي أو بديزني»[1]، بل أحيانا كثيرة يجبره الاقتراب من خط نهاية عمره القصير على إسقاط قناعاته السابقة، وتجديد إيمانه بالسماء، إما خوفا من عقاب ممكن أو طمعا في ثواب محتمل، أو عن تعلق خالص بالله على طريقة العشق الصوفي.

ربما لا نجانب الصواب، إذا قلنا إن تزايد اهتمام الباحثين بالديني وبوظائفه في العقود الأخيرة يرجع في المقام الأول إلى ارتفاع منسوب الحقد والكراهية اللذين عبَّرت عنهما، قولا أو فعلا، بعض الطوائف الدينية المتعصبة، إلى جانب تصاعد أعمال العنف والقتل التي اكتوى بنارها عدد لا يستهان به من ساكنة العالم، في إطار ما عُرف بـ«انتقام الله»[2]. على أن هذه الأعمال التي تم تصنيفها في خانة «الأعمال الإرهابية» لا ينبغي في نظر دوبريه أن نربطها رأسا بما بات يعرف بالنزعة الإسلاموية[3]، ونجعل منها كبش فداء، فقد خرجت، خلال القرن الماضي، حربان عالميتان من داخل القارة الأكثر إيمانا بالإنجيل بين القارات الخمس، ومع ذلك لا يحق لنا أن ندين المسيحية؛ لأن الإحصاءات تكشف أن الهند الإسلامية-الهندوسية تعرف معدلا إجراميا يضاهي في ارتفاعه ما نجده في الولايات المتحدة اليهودية-المسيحية. فهل نكون مخطئين حين نقحم السماء في شؤوننا الأرضية؟ لا يبدو الأمر كذلك؛ لأننا عندما نعود بالزمان إلى الوراء، ندرك أن الحرب في أثينا كما في روما كانت أيضا ذات منزع ديني، مع أنه ما ثبت يوما عبر التاريخ أن إله الجيوش قد صنع أسلحة أو أطلق نيرانا[4] إلا ما كان مما تضمنته بعض كتب الأساطير. فأن يُلقي رجال الدين، في الديانات

---

1 Régis Debray, le feu sacré, p 16

2 Ibid, p93

3 الإسلاموية (L'islamisme) هو مصطلح سياسي اجترحته المجموعات السياسية المناوئة للإسلاميين. ويفيد في معناه مجموعة الأفكار والأهداف السياسية النابعة من الشريعة الإسلامية التي تستخدمها ثلة من «المسلمين الأصوليين» الذين يؤمنون بأن الإسلام «ليس عبارة عن ديانة فقط، وإنما هو عبارة عن نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي يصلح لبناء مؤسسات دولة».

4 Ibid, p93

الرسالية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، بمسؤولية جرائمهم على السماء، فذلك في اعتقاد دوبريه ليس له سوى مبرر واحد هو محاولتهم التملص من العقاب وتبرئة أنفسهم من أفعال ينسبونها إلى الله بغير وجه حق؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أنه لو أمكن «إخراج الديانات من الصراعات الكبرى التي تلهب الأرض حاليا، فإن جذوتها ستنطفئ لا محالة لغياب الوقود. ووقود هذه النيران المستعرة هو الله الذي يُعد برميل البارود الذي ينبغي إخماده...».[5] لكن أليس الصواب أن يطردوا الخطيئة من صدورهم، بدل أن يعزوها إلى متعالٍ لا دخل له في ما يُنسب إليه إلا ما كان مِن اتخاذه مشجبا تُعَلَّق عليه التهم من أجل التنصل من المسؤولية وإضفاء القداسة على حروب مدنّسَة؟

ينظر دوبريه إلى تداخل الإلهي بالدموي، باعتباره أمرا ضاربا في القِدم، وحتى لو كان اللاهوت المتعالي يمارس تهديدا بسياسته المطلقة، فلا شيء من ذلك يدفع المرء إلى إدانة المطلق (=الإله) وتجريمه؛ لأن البشر هم من يشنون حروب الآلهة. وإذا كانت الديانات التوحيدية قد تمكنت من تغذية النار المقدسة هنا وهناك، فإنه لا يحق لنا أن نعتبر أن دينا مخصوصا هو من أضرمها، مثلما أن الإلحاد لم يكن يوما مرادفا للسلام. ولْنجرؤ على الاعتراف بأن «الوحشية» ذات صلة بطبيعة الإنسان ذاته بوصفه حيوانا مُحرَّفا، مصابا بهذا المرض العضال الذي يحمل اسما مُبهِجا هو الثقافة.[6]

فهل تعد الثقافة هي السبب في الوحشية التي أبداها الإنسان على مدار تاريخه؟

يطلعنا دوبريه على أن ذلك ما حاول فرويد أن يوضحه لعدد من العلماء الذين كانوا مشدودين إلى ضرب من اليوتوبيا يقضي بأن «الحرب موافِقة للطبيعة، وأنها تستند إلى ما هو بيولوجي في الإنسان، ولذلك بالكاد يمكن تجنبها عمليا»[7]. وقد حاول فرويد أن يوضح لهم بأن مفهوم الطبيعة قد التبس عليهم، ولم يتمكنوا من إدراك ماهيته الحقيقية؛ لأن الطبيعة في مدلولها العام لا تمثل بالنسبة إلى الطبيعة البشرية، في نظره، إلا ما يمثله القتل بالنسبة إلى طقس القربان، أو ما يمثله القتل دفاعا عن النفس بالنسبة إلى القتل الذي نعاينه في هيئات مختلفة للكائن البشري لدوافع متباينة. فأبناء جنسنا لا يتقاتلون فيما بينهم ليأكل بعضهم بعضا، مثلما هو حاصل لدى الحيوانات التي تحركها غريزة البقاء، ولذلك لا دخل للطبيعة والحياة في حروب البشر، ولا يبدو أن محرك الحرب بيولوجي، وإنما ثقافي صرف، وهو ما يُصَعِّبُ من أمر «تفاديها عمليا».[8]

بناء على ذلك، يرى دوبريه أن العودة إلى قاموس المفردات القديمة من شأنها أن توقفنا على تمييز في غاية الأهمية، بين كلمة حضارة - «بما هي مفهوم يدل على مجموعة من الاستعدادات العامة الكونية القابلة

5 Ibid, p 143

6 Ibid, p 93

7 Ibid, p 146

8 Ibid, p 146

للنقل» ـ وكلمة ثقافة ـ التي تعني أسلوبا خاصا في الحياة لا يقبل النقل إلى الجميع»، أو «هي مجموعة من السمات المميزة، أو السلوكيات أو القيم التي تَسِمُ شعبا معينا» ـ وبموجب هذا التمييز، فإن الديني يدخل في خانة «الثقافة»، وهذا من شأنه أن ينسف الحلم المُطَمْئِن بحضارة بلا ثقافات، أو بحضارة تحضنها جميعا. ومثلما تتحطم سفينة الحب على صخرة الواقع اليومي، يتحطم هذا الحلم الجميل على صخرة الأديان. وكما تتوحد الشعوب في معادلاتها وأدواتها، فهي تتفرق في أذواقها وصلواتها؛ فتصير طرقها في الحساب وصنع الآلات ـ العلم والتقنية ـ قابلة للتبادل. أما الأصوات التي تخرج من أفواهها وأحلامها ـ اللغة والتدين- فلا يحدث أن تتوافق[9]؛ لأن الثقافة، في معناها الإثنولوجي، لا توجد إلا حيث يرتسم حد معين، والحد عزلة كما لا يخفى، والعزلة تقديس للذات وإعلاء من شأنها، وربما انطوت على قدر قليل أو كثير من ازدراء الآخر، ولذلك كان مصير كل منعزل أن يكون مكروها ومعشوقا في الآن ذاته، وتلك أيضا طبيعة المقدس الذي يتماهى مع الثقافة بما هي وجه يحمل خلفه قفا اسمها الوحشية. ففي النهاية لم يتسبب في شقاء الإنسان سوى الإنسان، وتلك نتيجة ثابتة ومحسومة مهما حاولنا تبريرها وتسويغها بالصورة التي تخدم مآربنا أو أحلامنا أو أوهامنا؛ فليست كائنات خارقة للطبيعة هي من أضفت صفة الألوهية على أبطال ميتين، وألّهت الوطن، وخلّدت الجنود الذين قضوا دفاعا عن القضية التي أُطلق عليها هنا وهناك اسم «الحرب المقدسة» (من أجل الوطن، من أجل ستالين...)، وليست حقوق الإنسان، التي تمثل المُطلق بالنسبة إلى النسبيين، بمنأى عن المساءلة مثلما أنها ليست خيرا مطلقا كما يتوهم البعض، فعلاوة على أنها لم تفلح أبدا في الحيلولة دون قصف رياض الأطفال والعُزل والنساء والعجزة وغيرهم، فقد اتُّخذت مطية لانتهاك حقوق الإنسان، وباسم النزعة الإنسانية أُبيد الإنسان. ولهذا ما من ديانة خيّرة بالفطرة، أو سيئة بالمطلق؛ جميعها تمنح بعض الفوائد لأعضائها مع بعض الإجحاف الذي تبدو قيمته متساوية بينها تقريبا.

والمقال المقتضب الذي نعرض ترجمته في ما يأتي لا يخرج عن هذا السجال، سجال الفكر والدين، أو سجال الفلسفة تحديدا، كرسالة إنسانية كبرى ذات بعد ثوري[10]، تستهدف خلخلة البداهات وزعزعة القناعات التي تستبد بالعقول دون فحص أو تمحيص، مع اللاهوت الذي اتخذ سدنته **من تعاليم ديانتهم ـ مأخوذة بحسب فهمهم لها ـ مطية للحجر على العقل واضطهاد أصحابه. وقد عمد دوبريه إلى إجراء مقارنة دالة بين الحكمة الأبيقورية والعقيدة الماسونية والانتماء الديني، ليخرج بنتيجة مقتضاها أن ما يفصل أُسْرة الفكر (مجسدة في الفلسفة هنا) عن الانتماء الديني، هو أن الأولى ممارسة مفتوحة لا تشترط مكانا محددا ولا وجهة معلومة. أما الثاني، فينظر إلى الفرد كفاعل داخل تاريخ موجه مكانيا (مكان الصلاة له قِبلة ووجهة)؛ والفلسفة تُحلِّل، والدين يَسْتقطب؛ والفلسفة رؤية للعالم. أما الدين، فهو عالَم. قد نغير**

9 Ibid, p 164

10 الفلسفة هي مقاومة وثورية بطبيعتها، مقاومة لما هو قائم وثائرة على ما هو سائد. ولذلك، كان جيل دولوز يحب أن يستشهد بهذا القول: "**الثورة خطيئة الفلاسفة، وإن كانوا لا يقودونها في الواقع**»؛ بمعنى أنه إذا لم تحصل الثورة في الرأس، فلن تحصل كما يجب في الواقع.

انظر بهذا الخصوص: جمال نعيم، الفلسفة في الفضاء الافتراضي، دار التنوير، 2019، ص 27

نمط تفكيرنا كما يحلو لنا، بل هذا هو المطلوب، لكننا لا نستطيع تغيير عقيدتنا، التي هي عالمنا وكينونتنا، بنفس السهولة. والدين انتماء وولاء، هوية وسياج، وعد ووعيد. أما الفكر، فلا يربط الإنسان بالإنسان؛ لأنه لا يفصل الإنسان عن الإنسان، ولا يركن إلى هوية ثابتة لأن وظيفته تقويض الحدود إيمانا منه بأن الحدود نُذوب يمكن لشيء تافه أن يدميها، وليس له ما يَعِدُ به إلا ما كان من مقاومة أشكال الزيف التي تطبع حياة الإنسان، وتحريره من القيود التي تشل حركة عقله، وتلقينه فن العيش المشترك.

النص:

ليس للحكيم أعداء. أما الراهب، فلديه عدو رهيب هو الشيطان. فأين يحوم هذا الماكر؟ في القفار، وأين يذهب رجل الدين بالفطرة؟ إلى القفار. لكي يحارب هذا المُغوي بيديه المجردتين؛ لأن رجل الدين مجبول على المبارزة، بينما لا يتصارع رجل الفكر إلا مع الأفكار.

وإذا لم يكن من السهل دائما أن نفصل بين السلطتين، فربما يتوجب علينا أن نجازف بالقول إن الدين هو من يتولى الدعوة الاستراتيجية إلى الصراع، الداخلي والخارجي، بينما ترفض الفلسفة أن تسدد فاتورة ذلك. فالدين هو حكمة على أهبة الحرب - تحشد أتباعها لتُحَول صراعا روحيا إلى معركة رجال؛ وبمفردات مغايرة، نقول إن الحكمة هي ديانة تستخف بالجغرافيا، ولا تعترف بأماكن مقدسة ولا بحدود.

أليس العدو المكروه هو ما افتقدته العديد من الروحانيات القديمة، لكي تتحول إلى أنماط حياة ونماذج مجتمعية؟ فإذا نظرنا إلى الأبيقورية مثلا، فإننا سنرى فيها، كما توحي بذلك لامبالاتها النسبية بالعلم (فيزياء بسيطة، ومنطق غائب، وحضور قوي للأخلاق)، دِيانة فاشلة (manquée). ولو لم يكن لـ«طائفة أبيقور» المشابِهة في هذا لطائفة فيثاغورس، نوع من روح الكنيسة، فما من شك أنها لم تكن لتصمد طوال خمسة قرون (قبل أن تُبعث من جديد مع غاساندي (Gassendi) وبعض الملاحدة، لكن كمجرد حركة فكرية). فقد أخضع أبيقور، الرجل العصامي، الذي شبّهه إيرازم (Erasme) بالمسيح، نزواته للاهوت حقيقي (الآلهة موجودة، لكنها لا تتدخل في الطبيعة ولا تهتم بنا)، وكان في مُكنته أن يبلور من ذلك ديانة مناهضة للدين. وعلى الرغم من أن هذه الجماعة الإيمانية تنظر إلى الروح باعتبارها فانية، فقد كانت تنطوي على ممارسات تَقَوية وتنسّكات شخصية (الحديقة الأبيقورية كانت أشبه بالعيادة منها بالمدرسة). ولذلك، فإن الأبيقورية كانت أكثر من مجرد فن للعيش، كانت فنَّ مداواةٍ يعالج الأتباع من مرض التعاسة، الذي لم يكن سوى خطأ في الحكم يمكن لأيٍّ كان أن يتغلب عليه بسهولة. كان لديهم بالفعل برنامج زمني بأعياد الميلاد، وطقوس إراقة الخمر، وأشكال الأحجار الواجب تقديسها. باختصار، لقد كانت بمثابة أَخَوية قارية موزعة على العديد من المراكز (ميتيليني، أثينا، روما، إلخ.)، شبيهة بماسونية أرستوقراطية وعالمية تتيح لثلة

منتخبة من المريدين التنقل من مدينة إلى أخرى، ومن «جزيرة أصدقاء صغيرة ومُؤَمَّنة» (رينيه بييتر Renée Piettre) إلى أخرى؛ بَيد أن هذه المجموعة باءت بالفشل لأن باب الحديقة ظل مواربا، فلم يتمكن نادي الأصدقاء من أن يصنع جماعة حقيقية، تفصل بين الأوفياء والمدسوسين، أو بين المثاليين والناقصين؛ ولا كان هناك تلقين لأسس الجماعة ولا اختبار قبْلي للسلوك، ولا سجالات كبرى يتوجب دعمها. ولا شك أن الانفتاح على مختلف رياح العالم الهيلينستي لا يساعد على إنضاج أمثال هذه المحافل المعزولة ورفع قدرتها على المقاومة. والسعادة عزلة، تُرى من فوق الأسطح، بسيطة وهادئة. وذِروتها، أن يَعُدّ المرء حبات الفول في صحنه وهو ممدد على سرير، التريكلينيوم(*)[11]، يتجاذب أطراف الحديث مع إخوته وأخواته. إن الزمن الأبيقوري هو أشبه بظهيرة أنانية، على حافة صفحة ماء هادئة، بلا إثارة ولا توتر، كاللذين يتطلبهما الحماس المسيحي لتحصيل الخلاص؛ ناهيك عن أن يكون معركة، مادامت الأبيقورية تستند في فهمها إلى أنه لا شيء ولا شخص يمكنه أن يستثير الخوف (فالموت لا يعني شيئا). وليس ثمة تأليف مسرحي أبيقوري، يقابل بين جيوش الخير وجيوش الشيطان؛ ولا سمعنا عن وجودِ أبيقوريٍّ دجّال مثلما سمعنا عن وجود آباء كنيسة دجالين ومسيح دجال. [لأن مبدأهم يقضي] بأن يُعنى كل واحد بأزهاره ويدير ظهره للبرابرة، وستحل السعادة علينا حينها دون أن نسعى وراءها. إذا نظرنا إلى الأبيقورية كعقيدة، اضطرَّنا ذلك إلى البحث لها عن دافع، لكن سواء ربطنا هذا الدافع بآلهة فلكية أو بالإله الصانع لأفلاطون، فإنه سيظل مع ذلك تأمليا، وغير مجسَّم. ومن هنا يأتي بروفايل هذه الشخصية المحاطة بالغموض، التي بلا علامات واضحة للانتماء (بروفايل محمول على فصّ خاتم، أو ديونيزوس في قلب آنية خمر)؛ والمنغلقة على ذاتها إلى الأبد ad aeternam)، فحين لا يكون ثمة مُعارض، لا يكون ثمة حليف؛ وحين يغيب التهديد، يغيب الصمود، ولا يتبقى إلا حركة ضعيفة. ومع ذلك، جعل المسيحيون من «خنازير أبيقور» عدوّهم المثالي (قمة الظلم). لقد حالت هذه البراءة البهيجة، وهذا الإقدام على السعادة، وهذه البطولية الساخرة نوعا ما، والتي ليس لها تنين قيامة ولا يوم موعود، كما يقدمها لنا لوكريس الرائع، حالت دون أن تسافر هذه الإيزم (isme) السرية إلى حيث نحن. فما من سيرة ذاتية للمعلم، ولا شعارات، ولا أناشيد، ولا أعلام وشارات، كالتي نلفيها لدى أتباع نبيٍّ ما؛ وها قد مرت ألفي سنة، وما من أحرف أولى تخلد اسمه (=أبيقور)، ولا ثمة احتفاء سنوي بذكراه، ولا تمثال نصفي له في الحدائق، ولا ثمة حجٌّ إلى مرقده. كل ما هنالك فكرة، دون أي أثر أبيقوري خالد (ولا أفلاطوني، ولا كلبي، ولا رواقي)؛ لأن طريقةً في التفكير لا تكفي وحدها لترك أثر طويل الأمد. فمَن ذا الذي يشعر اليوم بأن عليه دَين لهذا البروميثيوسي المظلوم الذي أهداه ماركس أطروحته الجامعية، والذي كان يعلم بأن الخلود الوحيد الذي يمكننا أن نأمل فيه، هو أن يحتفظ اثنان أو ثلاثة من أصدقائنا بذكرانا؟ وإذن، فلنُلْقِ التحية على الأب أبيقور، كلما أتيح لنا أن نشارك شخصا قريبا، بين شجرتيْ سرو وعلى حافة نبع، متعة الاستمتاع بإجّاصة.

(*)11 التريكلينيوم (triclinium) هو الاسم الذي كان يطلقه الرومان قديما على صالة ذات ثلاث أرائك أو أسرّة تستعمل كغرفة طعام أو هي بمُسَمَّاهم صالة المأدبة.

ولنتأمل أيضا في ذلك الانسياب الخطير للماسونيين اليوم؛ لقد نَصَب لهم يوحنا الثالث والعشرون، في العام 1960، مقلبا شيطانيا حين حرمهم من أن يكون لديهم أعداء، بأن سمح لهم ببعض الاتصالات؛ كما قام القانون الجديد للحق الكنسي بالرفع السري للتحريمات القديمة، فكانت النتيجة أن اختفت الشعارات التي كانت تُثَبَّت على الحصون (مثلما كان عليه الحال خلال كومونة باريس)، وقلَّ منسوب الكراهية، وأصبح نشيد لامارسييز (la Marseillaise) السري، هو النشيد الرسمي؛ وقامت الجمهورية، بقوانينها وشُرطتها، بتحصين حرية الاعتقاد؛ وأبدى اليمين المتطرف العنصري ردة فعل ضعيفة؛ لأنه كان موافقا على ذلك. إجمالا، لقد أخلى الشيطان الأماكن، واختفت الأسرار، وما عادت هناك مطاردة للإخوة. فَضِدَّ مَن، وضد ماذا ستقام «سلسلة الاتحاد»؟ وهذا ما ولّد موجة من الاشتباه: «لكن ما الذي يفعلونه إذن خلف الجدران؟» وإصرار أبناء التنوير على التذكير بالزمن الجميل القبيح للبطولات - غودان (Gaudin)، فيليكس بيات (Félix Pyat)، ألوند (Allende) - وللاضطهادات - ليو تاكسيل (Léo Taxil)، وبيوس التاسع (Pie IX)، وفيتشي (Vichy)... ثم توقفت المعركة، لغياب الكنيسة والجيش...فمن الذي ما زال يمقت الماسونيين، وهؤلاء من تُراهم يمقتون إذن؟ إنها مشكلات الحدود والحظ العاثر: أسئلة دينية للغاية مطروحة على لا أدريين.

لَمَّا كان الانتماء الثقافي لا يمتلك نفس قدرات التفرد والتكامل [التي لدى الأديان]، فليس في مُكنته أن يقتطع لنفسه أرضا على الخريطة، ولا أن يتعاطى، لأجل ذلك، طقوسا مكرَّسة (إجراء أكثر مرونة من حاسة الشم التي تعتمدها القردة في تمييز المجال)، مثل الأركان الخمسة للإسلام، أو الأسرار السبعة المقدسة للكاثوليكية(*) . إن وضع الأديان في العالم يبدأ بالوضع الذي تحتله الأماكن والممارسات، وهو ما قد تتحاشاه بانوراما الفلسفات المتداولة. وبينما يقترح تيار فكري شبكة قراءة، نجد أن الدين لا يكتفي بتقديم نظام تفسيري لمصير البشرية، بل يقدم الطعام والمأوى، مقرونا بشبكة من الأعمال التكافلية التي تغطي كل مجالات الحياة: المدارس، والمستوصفات، والتعاونيات، والمقابر، والأبناك، مثلما نعاين في الإسلام، وبشكل خاص داخل العالم الشيعي. إن ما يفصل أُسْرة الفكر عن الانتماء الديني، هو أن هذا الأخير يتعامل مع الفرد كفاعل داخل تاريخ موجه مكانيا (مكان الصلاة له قِبلة ووجهة، أما المصنع أو الشركة فلا)؛ والفلسفة تُحلِّل، والدين يَسْتقطب؛ الأولى رؤية للعالم، والثاني عالَم؛ ولهذا يوجد تاريخ للفكر الإسلامي، بينما يوجد للإسلام كجماعة من التواريخ بقدر ما هنالك من فروع طائفية أو قومية. لكل جماعة بيتها. («الأرثوذكسية بيتي»). وهذا له ثمن: فالحدود، هي عقاب، من جهة، وهي شرط للهوية من جهة ثانية، ولذلك، فهي تجمع بين الدقة والشدة (القانون (nomos)، مشتق من الكلمة اليونانية (nemein)، التي تعني فصل وتقاسم). وإذا كان العقل لا يجمع، فينبغي على الأقل ألا يفرق؛ فهو لا يربط الإنسان بالإنسان؛ لأنه لا يفصل الإنسان عن الإنسان؛ وهو

لا يملك جنة يقدمها (كلمة paradis مشتقة في الفارسية الأفستية من كلمة (pairi-doeza)(*)[12]؛ أي الحديقة المسوّرة) ولا جحيما.

إننا لا نغير الدين كما نغير الحزب أو الشريك، بل كما نغير الجو، والأسرة، والقلب، والتغذية وجدول الأعمال. وباختصار، كما نغير كينونتنا. فالحق في حرية التدين يستلزم «حرية تغيير الدين أو القناعة»، ولحسن حظنا أنه من جملة الحقوق الأساسية داخل الاتحاد الأوروبي (الفصل 2، المادة 10). وجرائم الردة والكفر أصبحت بالنسبة إلينا مصطلحات بغيضة، تشهد على زمن لم يكن التدين خلاله يعني انخراطا فكريا أو اختيارا يعبر عن نزوع معين، وإنما عن ولاء، وانغماس في نظام حياة مختلف؛ من شواهده ما كانت تفرضه قبائل البربر على الأسرى المسيحيين، كمؤشرات على الإيمان بالله، من تغيير للاسم والنسب، واللباس، وتسريحة الشَّعر، إلى جانب الختان كعلامة غير قابلة للمحو. إن الأمر يتعلق بالفعل بقطيعة [مع الحياة السابقة].

الدين، موضوع مُحْرج، وتيمة بالغة الحساسية بالنسبة إلى الفيلسوف، أو الصحفي أو الشاهد. وأفضل طريقة لخلق أعداء هي أن نعاملهم كأعداء؛ حيث التحفظ البسيط يثير، والاعتراض يُغضب، والمقارنة تغيظ؛ ونحن نتكلم في الاقتصاد، ونتناقش في السياسة، لكننا حول الأشياء التي تفوق الوصف، نمارس التجريح في حق بعضنا البعض، يمارسه إنسان في حق إنسان، وأسوأ من ذلك، مجتمع في حق مجتمع. الرهانات الرمزية تجعل الصراعات العرقية-الدينية مراوِغة وصعبة المراس في آن - مع مؤشر لُزوجة أكبر بكثير من ذلك الذي نعثر عليه في الصراعات الكلاسيكية حول المصالح أو الأراضي بين الدول. وهي تورط من الناحية الوجودية كل عضو في المجموعة، وتعمل على إفراز عينة نفسية قديمة جدا وأكثر وحشية من الحروب بين الدول-الأمم التي انتهى بنا المطاف إلى التعود عليها منذ معاهدة ويستفاليا (1648). وهذه الصراعات لا تندلع ولا تتوقف بكبسة زرّ، وكلما كان العامل الديني المولِّد للخلاف قويا، إلا وأفلتت من قبضة السياسيين. ومن هنا ينبع اضطراب الدوائر الحكومية التي تبقى تحوم حول الخلاف دون أن تستطيع الدخول فيه. ولذلك، تنبثق خطوط التفريق الرئيسة - في أوروبا على سبيل المثال، يفصل الفالق (ريغا/سبليت) بين منطقتي توسع المبشرين البيزنطيين والكارولنجيين -، ويتقلص هامش المناورة أمام من يسمى صانع القرار، كما لو أن احتكار إعادة ترسيم الحدود التي أسندها إليهم تغليب مصلحة الدولة على مصالح الكنيسة أفلتت من قبضة الديبلوماسيين.

لماذا هذا العجز؟ لأن الرهانات ليست قابلة للقياس؛ فالأرض يمكن تقسيمها، والأصول يمكن تبادلها، والدَّين يمكن التفاوض حوله، لكن الهويات لا تقبل أي حسم، وكل واحدة من بينها ترفض أن يُنتقص منها.

(*)[12] الكلمة الفارسية (pairidaeza) تقابلها بالعربية كلمة «فردوس»، ومعناها أحاط بشيء وأحدق به، فيكون معنى الفردوس لغويا حديقة وجنة وبستان وروضة.

فعندما تندحر الأرقام في اقتصاد العصر الراهن يصاب كل شيء فيه بالجنون؛ أما الاعتقاد فلا يُشترى، ولا يُبادل مع آخر. فما عسى أن يفعل الناتج الوطني الإجمالي، أو حساب في البنك، أو عشر حوَّامات، أمام متطوع للاستشهاد أو أمام اعتقاد راسخ بالجنة؟ إننا نقف على سطحية الدراسات في مواجهة أسئلة الكينونة، وعلى حماقة في هذ الشأن تتعلق بحساب التكاليف («مال الإرهاب المخفي). فالفعل «يكون / est» المحدِّد للهوية ليس هو نفس «يكون / est» الذي يفيد الإسناد (هذا الكرسي [ ] أحمر) [فعل الكينونة هنا حاضر بالمعنى لا باللفظ بحكم اختلاف بنية الجملة العربية عن نظيرتها الفرنسية]، وإنما هو يقترب في معناه من الفعل الدال على الوجود (هذا الرجل **يوجد** على قيد الحياة). فإذا حذفنا الصفة «أحمر» من الجملة الأولى، فإن الكرسي سيظل موجودا، أما إذا حذفنا كلمة «الحياة» من الجملة الثانية، فلن يتبقى هناك رجل. لَكُم أن تَدهشوا بعد هذا كيف أن الإنسان لا يتنازل عما يرى أنه يُعَرِّفه كإنسان؛ فالمبادئ والقيم الكونية المتضمنة في مواثيقنا تعد غير قابلة للتجزيء، وهذا المصطلح لا يزال مناسبا للتعبير عن الرموز التي نتعرف فيها على أنفسنا، فهي تفلت من المنطق الحسابي. وكل اعتداء على قطعة من أرض الميعاد، هو في نظر شخص أصولي، اعتداء على هذه الأرض بكاملها بل وعلى سلامته الشخصية. إن هذا الجرح العميق، شبه الفيزيولوجي، يسخر من المعاهدات ومن المسوح العقارية؛ فهو أسمى من المصالح والحسابات الضيقة. وحكاياتُ الساحرات التي تمنحنا مستقبلا من خلال قيامها باختلاق ماضٍ لنا، هي من نسيجٍ مختلفٍ تماما عن العقود والتقارير. يمكننا أن نطلب الكثير من الصيارفة والاقتصاديين إلاَّ أن يَفهموا تاريخ البشر الذي تُفَصِّله أهواؤنا من قماش الأحلام.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021